المحاضرة الأولى ..

تعريف الخُلق، موضوعه، أقسامه، مكانته في الإسلام

أولاً- تعريف الخُلق:

الخُلق لغة: بضم الخاء واللام، الطبع والسجية. أي ما جُبل عليه الإنسان من الطَّبع. وجمعه أخلاقٌ.

وهو - أي الخُلق – يمثل صورة الإنسان الباطنة، التي هي نفسه التي بين جنبيه وأوصافها ومعانيها المختصَّة بها.

أو بتعبير آخر: الجانب المعنوي في شخصية الإنسان.

كما أن الخَلق يمثل صورته الظاهرة وأوصافها ومعانيها. أو بتعبير آخر: الجانب المادي في شخصية الإنسان.

واصطلاحاً: حالٌ للنفس راسخةٌ تصدر عنها الأفعال من خيرٍ أو شرٍ بسهولةٍ ويسرٍ من غير حاجةٍ إلى فِكرٍ و رَوِيَّةٍ.

وبهذا المعنى ورد قول الله سبحانه في مدح نبيه محمد ﷺ: {وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ} (القلم: ٤).

وقد يطلق الخُلق على نفس المبادئ والقواعد المنظمة للسلوك الإنساني على نحو يحقق الغاية من وجوده في هذا العالم على الوجه الأكمل. وبهذا المعنى ورد قول الرسول ﷺ: (إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق).

شرح التعريف: التعريف الأخير -نعني المبادئ والقواعد المنظمة للسلوك الإنساني- واضح لا لبس فيه، فالصدقُ والسخاءُ والرحمةُ والعدلُ وحبُ الخير للناس... جميعها أخلاقٌ حميدةٌ، وفضائلُ مُسلَّمةٌ، يسعى عقلاء الناس للتحلي بها، وتربية أولادهم عليها.

وأما التعريف الأول فهو الذي يكتنفه بعض الغموض، ويحتاج إلى توضيح. فنقول في بيان ذلك:

قولهم : (حالٌ): أي هيئةٌ أو صفةٌ للنفس الإنسانية. وبهذا الاعتبار يقال: فلانٌ خلقه حميد. أي؛ الصفةُ التي في نفسه -والتي هي وراء تصرفاته السلوكية- حميدةٌ.

وقولهم: (راسخةٌ): أي؛ ثابتة بعمق. وهو ما يعني أن الأفعال تتكرر من صاحبها على نسقٍ واحدٍ حتى تصبح عادةً مستقرةً لديه. ومن ثمَّ كان مَنْ يُنفق المال مرةً أو مرتين أو ثلاثٍ على المحتاجين لا يوصف بخُلق السخاء والجود، بل لابد من تكرره منه بحيث يصبح عادة له.

وقولهم: (من غير حاجةٍ إلى فِكرٍ ورَوِيَّةٍ): أي من غير تَكَلُّفٍ أو مجاهدةِ نفس، بل بسهولة ويسر، وبطريقة تلقائية.

يقول الإمام الغزالي رحمه الله: "الخَلق والخُلق عبارتان مستعملتان معاً، يقال: فلانٌ حسنُ الخُلق والخَلق. أي: حسن الباطن والظاهر. فيراد بالخَلق الصورة الظاهرة، ويراد بالخُلق الصورة الباطنة. وذلك لأن الإنسان مركبٌ من جسدٍ مدرك بالبصر، ومن روح ونفس مدركٍ بالبصيرة. ولكل واحد منهما هيئةٌ وصورةٌ: إما قبيحةٌ، وإما جميلةٌ. فالنفس المدركة بالبصيرة أعظم قدراً من الجسد المدرك بالبصر، ولذلك عظم الله أمره بإضافته إليه، إذ قال تعالى: {إِنِّى خَالِقٌ بَشَراً مِّن طِينٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ} (ص: ٧١-٧٢) ، فنبه على أن الجسد منسوب إلى الطين، والروح إلى رب العالمين، والمراد بالروح والنفس في هذا المقام واحد".

ثانياً- موضوع علم الأخلاق:

ليس جميع ما يستقر في النفس من الصفات من قبيل الأخلاق؛ بل منها ما هو من قبيل الغرائز والدوافع ولا صلة لها بالخلق. وما يميز بين الاثنين هو؛ أن الأخلاق يبحث في الأحكام القيمية المتعلقة بالأعمال التي يمكن وصفها بالخير أو الشر، أو بالحسن أو القبح. والغرائز والدوافع حاجات فطرية، جَبَلَ الله الإنسان عليها كحاجته للأكل والشرب والزواج والنوم ... وهذه لا تستوجب لصاحبها مدحاً أو ذماً، كما لا يترتب على إشباعها ثوابٌ أو عقابٌ.

فإن حصل ومُدِحَ الإنسانُ أو ذُمَّ على تعاطيه مع بعض تلك الغرائز أو الدوافع، كان المقصود ليس نفس الفعل، وإنما الطريقة التي اتبعها صاحبها في تلبية تلك الحاجة، أو إشباع تلك الرغبة. فمن يأكل لدفع الجوع عن نفسه لا يُمدح ولا يُذم على نفس فعل الأكل، وإنما يُمدح أو يُذمُّ على طريقته في الأكل. فإن أكل مثلاً مما يليه، وبهدوءٍ، ومضغ الطعام جيداً، وبدأ باسم الله، وانتهى بحمد الله، حُمِد على فعله هذا.
وإن أكل بشراهةٍ، وأدخل اللقمةَ على اللقمة، وجالت يده في القصعة، ذُمَّ على فعله ذاك. وهكذا يقال في تعاطيه مع جميع الدوافع والغرائز من شراب ونكاح ونوم وحبٍ للمال والولد.

ثالثاً- أقسام الخلق:

يمكن تقسيم الخلق إلى قسمين اثنين باعتبارين مختلفين:

أولهما: باعتبار الفطرة والاكتساب: وينقسم إلى:

- **أخلاق فطرية:** جَبَلَ الله الإنسان عليها. أي أنها هبةٌ ومنحةٌ من الله تعالى، وليس للإنسان أي دور في اكتسابها. مثال ذلك ما جاء في حديث أشج عبد القيس - وكان وافدهم وقائدهم ورئيسهم وعبد القيس قبيلة- حيث قال له النبي ﷺ: (إنَّ فِيكَ خَصلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللهُ الْحِلمُ وَالْأَنَاةُ). قال يا رَسُولَ اللَّهِ: أنا أَتَخَلَّقُ بهما، أمْ اللهُ جَبَلَنِي عَلَيْهِمَا؟ قال: (بَلْ اللهُ جَبَلَكَ عَلَيْهِمَا) قال: الْحَمْدُ لِلَّهِ الذي جَبَلَنِي على خَلَّتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللهُ وَرَسُولُهُ". قال النووي: " أما الأشج فاسمه المنذر بن عائذ ... وأما الحلم: فهو العقل. وأما الأناة: فهي التثبت وترك العجلة. ... وسبب قول النبى صلى الله عليه وسلم ذلك له، ما جاء فى حديث الوفد أنهم لما وصلوا المدينة بادروا إلى النبى صلى الله عليه وسلم، وأقام الأشج عند رحالهم، فجمعها وعقل ناقته، ولبس أحسن ثيابه، ثم أقبل إلى النبى صلى الله عليه وسلم، فَقَرَّبَه النبى صلى الله عليه وسلم، وأجلسه إلى جانبه، ثم قال لهم النبى ﷺ: تبايعون على أنفسكم وقومكم؟ فقال القوم: نعم. فقال: الأشج: يا رسول الله إنك لم تزاول الرجل عن شيء أشدَّ عليه من دينه. نبايعك على أنفسنا، ونرسل من يدعوهم، فمن اتَّبَعنا، كان مِنَّا، ومَنْ أبى قاتلناه. قال: صدقت. (إن فيك خصلتين ...) الحديث قال القاضي عياض: فالأناة: تربصه حتى نظر فى مصالحه ولم يعجل. والحلم هذا القول الذى قاله، الدال على صحة عقله، وجودة نظره للعواقب".
- **أخلاق مكتسبة:** يسعى الإنسان في تحصيلها بالتدريب والممارسة العملية، ومن خلال مجاهدته لنفسه. ومنه قول النبي ﷺ: (إنما العلم بالتعلم)، وفي حديث آخر (وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللهُ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللهُ).

ثانيهما: باعتبار القبول وعدمه شرعاً: وبهذا الاعتبار ينقسم الخلق إلى:

خلق محمود: وهو حسن الأدب، وتنتج عنه أقوالٌ وأفعالٌ جميلةٌ عقلاً وشرعاً.

خلق مذموم: وهو سوء الأدب، وتنتج عنه أقوالٌ وأفعالٌ قبيحةٌ عقلاً وشرعاً.

رابعاً: مكانة الأخلاق في الإسلام:

تمثل الأخلاق جوهر رسالة الإسلام ، بكل ما تحمله كلمة الأخلاق من معنى.
فقد حث الإسلام على الفضائل وحذر من الرذائل في نصوص لا تحصى من القرآن والسنة، ووصل فيها إلى أعلى درجات الإلزام، ورتب عليها أعظم مراتب الجزاء، ثواباً وعقاباً، في الدنيا والآخرة. فالرسول ﷺ أخبرنا أن (الصدق يهدي إلى البر، والبر يهدي إلى الجنة. والكذب يهدي إلى الفجور، والفجور يهدي إلى النار)، وقال: (دخلت امرأة النار في هرة حبستها لا هي أطعمتها، ولا هي دعتها تأكل من خشاش الأرض)، و(غفر الله لبغي في كلب سقته)، و(المرء يبلغ بحسن خلقه درجة قائم الليل، صائم النهار).
وبلغ من عناية الإسلام بالأخلاق أن الله سبحانه حين أثنى على نبيه محمد ﷺ في القرآن الكريم اختار الثناء عليه من جهة أخلاقه ليُعلمنا أنه لا أبلغ ولا أرفع من هذه الصفة. فقال تعالى: {وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ} (القلم: ٤).

وجعل الرسول ﷺ الغاية والهدف من رسالته إتمام البناء الأخلاقي الذي بدأه من سبقه من الأنبياء والمرسلين، فقال فيما يرويه أبو هريرة رضي الله عنه: (إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق) ولعله يشير بذلك إلى أنه ﷺ كان المتمم والمكمل لرسالات من سبقوه من الأنبياء عليهم السلام، وما بعثوا به من القيم والفضائل، كما أخبر بذلك ﷺ فقال: (إِنَّ مَثَلِي وَمَثَلَ الْأَنْبِيَاءِ من قَبْلِي، كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بَيْتًا فَأَحْسَنَهُ وَأَجْمَلَهُ، إلا مَوْضِعَ لَبِنَةٍ من زَاوِيَةٍ، فَجَعَلَ الناس يَطُوفُونَ بِهِ وَيَعْجَبُونَ له وَيَقُولُونَ: هَلَّا وُضِعَتْ هذه اللَّبِنَةُ). قال: (فَأَنَا اللَّبِنَةُ، وأنا خَاتِمُ النَّبِيِّينَ).

وحسن الخلق من أكثر الوسائل التي توصل المرء إلى الفوز بمحبة الله ورسوله، والظفر بقربه يوم القيامة، حيث يقول ﷺ: (إِنَّ من أَحَبِّكُمْ إِلَي وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يوم الْقِيَامَةِ أَحَاسِنَكُمْ أَخْلَاقًا)، ولما سئل "مَنْ أَحَبُّ عِبَادِ اللَّهِ إلى اللَّهِ؟" أجاب: (أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا). هذا من حيث مكانة الأخلاق وأهميتها بصورة عامة.

وأما من حيث مكانة **الأخلاق بين علوم الشرع** فإن كثيراً من الباحثين المعاصرين يقسمون ما جاء به الإسلام من تشريعات وأحكام إلى شعب أربعة: عقائد، وعبادات، ومعاملات، وأخلاق. وربما قسمها بعضهم إلى ثلاث شعب فدمجوا بين العبادات والمعاملات تحت اسم الشريعة، فقالوا: عقيدة، وشريعة، وأخلاق.

وكلا التقسيمين إنما يصح بالنظر إلى الجهة الغالبة في تلك القضايا والمسائل التي تناولتها نصوص الشرع، وإلا فعند التأمل وإنعام النظر نجد أن هذه الشعب الثلاث أو الأربع لا تنفك عن بعضها، وأنها متداخلة متعاضدة كالبنيان يشد بعضها بعضاً. فالأخلاق لا تنفك عن العقيدة والعبادات والمعاملات، وفي نفس درجتها ومستواها من الأهمية.

ففي باب العقائد نجد أن الإسلام يربط بين الإيمان والأخلاق ربطاً محكماً فيجعل حسن الخُلق علامة كمال الإيمان والتفاضل فيه، فيقول ﷺ: (أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا)، ويضفي على التوحيد صبغة خُلُقية، فيعتبره من باب "العدل" وهو فضيلة خلقية، كما يعتبر الشرك من باب "الظلم" وهو رذيلة خلقية، فيقول سبحانه: {إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ} (لقمان: ١٣)، وذاك لأنه وضعٌ للعبادة في غير موضعها، وتوجه بها إلى من لا يستحقها. بل اعتبر القرآن الكريم الكفر بكل أنواعه ظلماً، فقال تعالى: {وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ} (البقرة: ٢٥٤).

وفي باب العبادات نجد أن الكبرى منها ذات أهداف أخلاقية منصوص عليها بجلاء:

فالصلاة وهي العبادة الأهم في حياة المسلم، لها وظيفة سامية في تكوين الوازع الذاتي، وتربية الضمير الديني على الابتعاد عن الرذائل. قال تعالى: {وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ} (العنكبوت: ٤٥)، وهي كذلك تعين المسلم على مواجهة متاعب الحياة. قال تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَوةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ} (البقرة: ١٥٣).

والزكاة وهي العبادة التي تلي الصلاة في الأهمية، وسيلة لتطهير وتزكية النفس، وهما من الأهمية بمكان في عالم الأخلاق. قال تعالى: {خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا} (التوبة: ١٠٣).

والصيام إنما يقصد به تدريب النفس على الكف عن شهواتها، وإدخال صاحبها في سلك المتقين، والتقوى جماع الأخلاق الإسلامية. قال تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} (البقرة: ١٨٣).

والحج تدريب للمسلم على التطهر والتجرد والترفع عن زخارف الحياة، وضبط الجوارح. قال تعالى: {الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ} (البقرة: ١٩٧).

وفي مجال المال والاقتصاد كان للأخلاق حضورها سواءً في ميدان الإنتاج أم التداول أم التوزيع أم الاستهلاك.

ففي مجال الإنتاج يجب أن تكون السلعة المنتجة نافعة مفيدة، وأما ما كان ضاراً بالناس أو مؤذياً لهم فلا يجوز إنتاجه مهما كان سيجلب لصاحبه من أرباح مادية. قال تعالى: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا} (البقرة: ٢١٩).

وفي مجال التبادل يحرم الإسلام الاحتكار والغش وكتمان العيب، وإنفاق السلعة بالحلف، واستغلال حاجة الآخرين أو استغلال بساطتهم أو طيشهم لخداعهم ففي الحديث: (لا يحتكر إلا خاطئ)، أي آثم. وفيه أيضاً: (مَنْ غشنا، فليس مِنَّا)، وفيه: (الحَلِفُ مَنْفَقَةٌ للسلعة، مَمْحَقَةٌ للربح).

وفي مجال الملكية، لا يحل للمسلم تملك ثروة من طريق خبيث. ولا يحل له أن يأخذ ما ليس له بحق كأن يأخذه بالعدوان أو الحيلة. ولا يجوز له تنمية ملكه بطريق محرمة، ومن ثَمَّ حرم الله الربا والقمار والرشوة، وكل ما يعد من قبيل أكل المال بالباطل. وحرم كذلك الظلم بكل صوره وأشكاله، والضَّرر والضِّرار بكل ألوانه.

وفى مجال التوزيع أمر بالعدل بين الأولاد في العطية فقال ﷺ: (اتَّقُوا اللَّهَ وَاعْدِلُوا بين أَوْلَادِكُمْ)، كما وضع نظاماً دقيقاً في توزيع الميراث، والصدقات المفروضة، والغنائم والفيء والخراج والجزية وعطايا بيت المال.

وفي مجال الاستهلاك والإنفاق أمر الإسلام بالاعتدال والتوسط، والابتعاد عن الترف، والتبذير والإسراف والتقتير. قال تعالى: {وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا} (الإسراء: ٢٩)، وقال أيضاً: {وكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ} (الأعراف: ٣١). ومن هذا الباب تحريم الإسلام لاستعمال أواني الذهب والفضة مطلقاً، وكذا تحريمه لبس الذهب والحرير على الرجال.

وفي مجال السياسة ربط الإسلام السياسة بالأخلاق، فرفض كل الأساليب القذرة للوصول إلى الغايات مهما كانت تلك الغايات نبيلة، ورفض مبدأ "الغاية تبرر الوسيلة"، وبنى سياسته على الصدق والرحمة والعدل والإنصاف والمساواة بين الجميع في الحقوق والواجبات والعقوبات، وفرض احترام الاتفاقات، والوفاء بالعهود. قال تعالى: {وَإِمَّا تَخَافَنَّ من قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ على سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الخَائِنِينَ} (الأنفال: ٥٨)، وقال جل شأنه: {وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا} (الأنعام: ١٥٢).

وفي مجال الحرب لم تنفصل سياسة الإسلام عن الأخلاق، بل بقيت كما في السِّلم مبنية على العدل والرحمة والصدق والوفاء. قال تعالى: {وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ} (البقرة: ١٩٠)، وقال جل في علاه: {وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ} (المائدة: ٢). وجعل الإسلام الغاية من الحرب إعلاء كلمة الله، والانتصار للحق والخير. قال تعالى: {الَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ الطَّاغُوتِ} (النساء: ٧٦).

وفي السنة أن النبي ﷺ كان إذا أَمَّرَ أميراً على جَيْشٍ أو سَرِيَّةٍ أَوْصَاهُ في خَاصَّتِهِ بِتَقْوَى اللَّهِ وَمَنْ معه من الْمُسْلِمِينَ خَيْرًا ثُمَّ قال: (اغْزُوا بِاسْمِ اللَّهِ في سَبِيلِ اللَّهِ، قَاتِلُوا من كَفَرَ بِاللَّهِ، اغْزُوا ولا تَغُلُّوا ولا تَغْدِرُوا ولا تَمْثُلُوا ولا تَقْتُلُوا وَلِيدًا). وكذلك كان يفعل الخلفاء الراشدون المهديون من بعده، فقد كانوا يوصون قوادهم وأمراءهم عند تسيير الجيوش بتقوى الله، وعدم قتل غير المحارب، وعدم الإفساد والإضرار بالممتلكات، من ذلك ما جاء في وصية أبي بكر رضي الله عنه ليزيد بن أبي سفيان حين بعث جيوشاً إلى الشام، فقد خرج يتبعه ويوصيه، فكان مما قال: "إني أوصيك بعشر؛ لا تَقْتُلَنَّ صبياً، ولا امرأةً ولا كبيراً هرماً، ولا تَقْطَعَنَّ شجراً مثمراً، ولا تُخْرِبن عامراً، ولا تَعْقِرنَّ شاةً ولا بعيراً إلا لمأكلةٍ، ولا تَغْرِقنَّ نخلاً ولا تحرقنَّه، ولا تَغْلُلْ ولا تَجْبُنْ".

- وهكذا فما من مجال من مجالات الحياة يمكن للمسلم أن يعيشها بمعزل عن القيم الأخلاقية والضوابط السلوكية، وهذا الذي ذكرناه ما هو إلا غيض من فيض.

نهاية المحاضرة الأولى ..

المحاضرة الثانية

أسس الأخلاق في الإسلام

يقوم النظام الأخلاقي في الإسلام على أربعة أسس هي: الأساس الاعتقادي، والأساس الواقعي، والأساس العلمي، ومراعاة الطبيعة الإنسانية.

أولاً - الأساس الاعتقادي:

يتمثل الأساس الاعتقادي للأخلاق الإسلامية في ثلاثة أركان هي:

الركن الأول: الإيمان بالله تعالى، وبأنه خالق الكون. وخالق الإنسان. وخالق الموت والحياة. والإيمان بأنه تعالى قد أحاط بكل شيءٍ علماً، ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، ويعلم ما يدور في خلجات النفس من خير أو شر. قال الله تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الوَرِيدِ} (ق:١٦).

الركن الثاني: الإيمان بأن الله عز وجل منذ أن أوجد الإنسان فوق هذه البسيطة هداهم لمعرفته، وعرفهم بطريق الخير والشر، والحق والباطل، من خلال الرسالات السماوية التي أرسلها للبشر. قال تعالى: {قُلْنَا اهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ} (البقرة: ٣٨). وقال سبحانه: {وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا، فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا} (الشمس:٨).

كما أن الله سبحانه وهب الإنسان العقل والفطرة، وأوجد فيه القوة والقدرة على إدراك تلك الحقائق، من معرفة الله، ومعرفة الحق، ومعرفة الخير والشر.

ومن ثمَّ جاء تكليفهم باتباع الحق والخير، واجتناب الشر والباطل، وإدراك ما عليهم من واجبات تجاه خالقهم، وتجاه المخلوقات الأخرى، وكذلك معرفة ما هو محرم عليهم، ومطلوب منهم اجتنابه.

الركن الثالث: الإيمان بالحياة الأخرى، وأنها إما نعيم، وإما جحيم. والنعيم لمن اتبع الحق، وأقدم على فعل الخير، واجتناب الشر. والجحيم لمن اتبع الباطل، وارتكب ما حرم الله.

وكلاهما يكون بعد حساب دقيق بين يدي الخالق عز وجل يوم القيامة. قال تعالى: {فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ}(الزَّلزلة:٧-٨).

إذن؛ فهذه الحياة ميدان عمل واختبار للإنسان. قال تعالى: {الَّذِي خَلَقَ المَوْتَ وَالحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا} (الملك:٢). والحياة الأخرى للحساب والجزاء. قال تعالى: {وَنَضَعُ المَوَازِينَ القِسْطَ لِيَوْمِ القِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ} (الأنبياء:٤٧).

أهمية الأساس الاعتقادي:

هذا الأساس الاعتقادي بهذا المفهوم –المعتمد على الإيمان بالله، وبرسالاته، وبالحياة الأخرى، والحساب- في غاية الأهمية، بل إنه السند الذي يُعتمدُ عليه في إقامة النظام الأخلاقي الإسلامي، وفي عملية الالتزام به.

ومن غير هذا الأساس تفقد الأخلاق قدسيتها، وتأثيرها في الإنسان. بل يستحيل أن تطبق تطبيقاً عملياً دقيقاً في السر والعلن. ثم بقدر تمكن هذا الأساس في قلب المؤمن، ورسوخه فيه، وإيمانه الصادق به، يكون الامتثال والتحلي بتلك الفضائل والقيم.

وليس هذا أساسٌ للسلوك الأخلاقي فحسب، بل كذلك للحياة كلها؛ ومن غيره لا يكون للحياة معنى في الحقيقة.

ودليل ذلك ما نلحظه في سلوك الوجوديين وأمثالهم من الملاحدة -الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر- حيث القلق والحيرة والاضطراب يستبد بأعماق قلوبهم، وبتفكيرهم. وأما المؤمن فهو في طمأنينة ورضا، مهما واجهته من المصائب والمشاكل. وبقدر زيادة إيمانه، وتمكنه من قلبه، يكون شعوره بالرضا أعظم، وتسليمه بقضاء الله وقدره أتم.

والسر في ذلك هو أن في طبيعة الحياة الإنسانية جانباً لا يملؤه إلا الإيمان؛ فمن انعدم لديه الإيمان عانى من الفراغ في هذا الجانب، فأحس بالقلق والاضطراب.

وإن مما يؤكد ما سبق أن أولئك الناس -من غير المؤمنين- لا يعانون فقراً أو حرماناً أو مرضاً! وإنما يعانون من فقدان الطمأنينة التي تجلبها العقيدة الصحيحة، والإيمان القويم.

إن اعتماد الأخلاق على هذا الأساس العقدي، يضفي عليها طابعاً مميزاً من القداسة والاحترام، ويوقظ في صاحبه الوازع الديني (أو ما يسمى بالضمير) ويجعله أكثر استجابة لفعل الخير. وهذا ما يقر به الدكتور ألكسيس كاريل حيث يقول: "الفكرة المجردة لا تصبح عاملاً فعالاً إلا إذا تضمنت عنصراً دينياً، وهذا هو السبب في أن الأخلاق الدينية أقوى من الأخلاق المدنية إلى حد تستحيل معه المقارنة، ولذلك لا يتحمس الإنسان في الخضوع لقواعد السلوك القائم على المنطق، إلا إذا نظر إلى قوانين الحياة على أنها أوامر منزلة من الذات الإلهية"

ثانياً - الأساس الواقعي:

دعا الإسلام إلى المثالية والسمو الروحي، وذم الذين أخلدوا إلى الأرض وشهواتها، إلا أن دعوته إلى المثالية هذه كانت واقعية في نفس الوقت، وكانت وسطاً بين نظرتين متطرفتين. والنظرتان المتطرفتان هما:

- الدعوات الروحية التي تدعو الإنسان إلى مجابهة الطبيعة والاستعلاء عليها، مهما كانت الضغوطات التي تواجهه في الحياة شديدة، وذلك لأنه بهذا الاستعلاء وبهذه المجابهة، يحقق لنفسه السعادة المنشودة والسمو الروحي الذي يطمح إليه.

- الدعوات المادية (أو دعوات الطبيعيين) والتي تدعو إلى الاستسلام للطبيعة، والاستجابة لها، لأن سعادة الإنسان -من وجهة نظرهم- إنما تتحقق من خلال هذه الاستجابة، والإخلاد إلى الأرض، ومن ثمّ فإنهم يتجاهلون متطلبات الروح.

وأما الإسلام فكان موقفه من الطبيعة وسطاً معتدلاً بين هاتين النظرتين، وقد تجلى ذلك في:

- دعوته الإنسان إلى أن يكون سيداً على نفسه، فيضبط ميوله ورغباته ويوجهها وفقاً للمثل العليا التي جاء بها الإسلام، وأن يكون كذلك سيداً على الطبيعة، فيسخر مواردها في عمران الأرض، ونفع العباد. كما قال تعالى: {هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا} {هود:٦١}.

- دعوته إلى التأقلم والانسجام مع الطبيعة ومع الواقع، وعدم التصادم معها؛ وذلك عن طريق اتخاذ قواعد للسلوك تنسجم تمام الانسجام مع القوانين الأساسية للحياة البشرية. وهو ما سنتناوله في الفقرة التالية.

ثالثاً - الأساس العلمي:

ونعني به القوانين الأساسية للحياة البشرية، والتي أقام الإسلام نظامه الأخلاقي عليها وهي: (قانون المحافظة على الحياة، وقانون تكاثر النوع الإنساني، وقانون الارتقاء العقلي والروحي). وفيما يلي نتناول هذه القوانين بشيء من التفصيل.

القانون الأول: قانون المحافظة على الحياة:

ونعني به أن الإسلام اعتبر كل سلوك من شأنه أن يحافظ على الحياة وينميها سلوكاً أخلاقياً مشروعاً ومطلوباً. كما أنه اعتبر كل سلوك يضاد الحياة، أو يعوقها بصورة من الصور، سلوكاً غير أخلاقي، ومن ثمّ فهو مرفوضٌ ومحرم.

ومن هنا كان القتل حراماً؛ لأنه سلوكٌ غير أخلاقي، وكذا تهديد الآخرين وإخافتهم، أو التحاسد والتباغض والتدابر، كلها محرماتٍ، ويعتبر سلوكاً غير أخلاقي.

فالإسلام جاء بتشريع كل ما من شأنه احترام حياة الناس، والمحافظة على أرواحهم وأعراضهم ودمائهم، والسعي لتحقيق ما فيه نفعهم.

القانون الثاني: تكاثر النوع الإنساني:

ونعني به أن الإسلام اعتبر كل سلوك من شأنه أن يؤدي إلى إبقاء النوع الإنساني وتحسينه سلوكاً أخلاقياً راقياً ومطلوباً، ومن ثمّ شرع الزواج، وحث عليه، ونهى عن التبتل أو الرهبانية، ففي حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي صلى الله عليه وسلم، يسألون عن عبادة النبي صلى الله عليه وسلم، فلما أخبروا كأنهم تقالُّوها، فقالوا: وأين نحن من النبي صلى الله عليه وسلم؟ قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. قال أحدهم: أما أنا، فإني أصلي الليل أبداً، وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً. فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم، فقال: (أنتم الذين قلتم كذا وكذا، أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني)، كما حث على حسن اختيار الزوجة، فقال صلى الله عليه وسلم: (تخيروا لنطفكم، وانكحوا الأكفاء، وأنكحوا إليهم)، وحث الآباء على تزويج بناتهم من أناس صالحين، ذوي دين وخلق فقال صلى الله عليه وسلم: (إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه، إلاّ تفعلوا تكن فتنةٌ في الأرض وفساد)

كما أن الإسلام - من جهة أخرى- منع كل سلوك من شأنه أن يحدّ أو يعوق استمرار التناسل، كالرهبانية أو الخِصاء، لما فيه من المنافاة مع بقاء النوع الإنساني وتكاثره. ففي حديث ابن مسعود رضي الله عنه، قال: "كنا نغزو مع النبي صلى الله عليه وسلم ليس لنا نساء، فقلنا: يا رسول الله، ألا نستخصي؟ فنهانا عن ذلك.

القانون الثالث: الارتقاء العقلي والروحي:

ونعني به أن الإسلام اعتبر كل سلوكٍ من شأنه أن يؤدي إلى السعادة، والإقبال على الحياة بمحبة وانشراح، وينمي العقل، ويحافظ عليه، سلوكاً أخلاقياً راقياً.

كما أنه اعتبر -من جهة أخرى- كل سلوك يضاد الحياة السعيدة، أو يضاد العقل، بأن يجعل الإنسان يعيش في عزلة من الناس، أو متشائماً قلقاً، أو يضر بعقله، أو يجعله مريضاً، أو مستسلماً للجهل والخرافات، فإنها جميعاً تعدُّ سلوكاً غير أخلاقي.

ومن ثَمَّ فقد حث الإسلام على العلم، وصلة الرحم، ومحبة الآخرين، والرحمة بهم، والرضا بقضاء الله وقدره. ففي الحديث: (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه)، وفي آخر: (عجباً لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن؛ إن أصابته سراء شكر، فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر، فكان خيراً له)، فيتلقى المصائب بالرضا بقضاء الله، والتسليم لأمره، وأن ذلك هو الخير، وأن الحكمة كل الحكمة فيه، ولو خفي عليه وجه ذلك، فيحيا حياة سعيدة، وهذا ما لا يكون إلا للمؤمن.

كما حرم الإسلام الانتحار، وتعاطي المسكرات والمخدرات، وما من شأنه أن يضر الإنسان في بدنه أو عقله. قال تعالى: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا} (البقرة٢١٩). وقال سبحانه: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنْصَابُ وَالأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ، إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ} (المائدة٩٠-٩١). ومثل هذه النصوص كثيرة جداً.

وعليه فإن الإسلام يعد الخروج على القوانين تعدياً وخروجاً عن جادة الحياة المستقيمة.

رابعاً: مراعاة الطبيعة الإنسانية:

وهذا هو الأساس الرابع الذي يبني الإسلام نظامه الأخلاقي عليه، ونعني به أن الإسلام ينظر إلى الإنسان على أنه روحٌ وجسدٌ، وعقلٌ وشهوةٌ، وقلبٌ ومشاعرُ وعواطفُ، وأن هناك صراعاً بين طبيعة الإنسان وتكوينه المادي الذي يميل إلى الأرض والتراب الذي خُلق منه، فينساق للأهواء والشهوات، وروحه العلوية التي هي من نفخ الإله، وتدعوه إلى السمو والرقي والمثالية.

ومن ثَمَّ فقد وضع الإسلام نظاماً دقيقاً للتنسيق بين هاتين الطبيعتين في الإنسان، ووجهه إلى السلوك الذي يليق به بصفته المخلوق الذي كرمه الله، وبصفته الكائن الأشرف على ظهر هذه البسيطة، وبصفته من أتباع خاتمة الرسالات السماوية.

ولا يخفى أهمية هذا الأساس في الدراسات الأخلاقية، لما بين سلوك الإنسان، وطبيعته التي جبله الله عليها من صلة وثيقة، ولأن نجاح أي نظام أخلاقي يتوقف على مدى انسجامه مع واقع هذه الطبيعة البشرية.

نهاية المحاضرة الثانية ..

المحاضرة الثالثة

خصائص الأخلاق الإسلامية

تمتاز الأخلاق الإسلامية بجملة من الخصائص تميزها عن غيرها من الأنظمة الأخلاقية، وهي:

أولاً- الانبثاق عن عقيدة الإسلام:

الأخلاق الإسلامية مرتبطة بالعقيدة ارتباطاً قوياً وعميقاً؛ بحيث يستحيل الفصل بينهما. والنصوص التي تربط بين الإيمان وحسن الخُلق كثيرة جداً؛ حتى إنها لتجعل الإيمان، هو نفسه حسن الخُلق، وذلك لأن حسن الخلق يقتضي أول ما يقتضي شُكر المنْعِم (الإله)، والاعتراف بفضله، والثناء عليه، والوقوف عند حدوده بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه. وأما التمرد على أوامره ونواهيه، فهو أعظم العقوق، وأفحش الخُلق. يقول الإمام الغزالي رحمه الله تعالى: "حسن الخلق هو الإيمان، وسوء الخلق هو النفاق، وقد ذكر الله تعالى صفات المؤمنين والمنافقين في كتابه، وهي بجملتها ثمرة حُسْن الخلق، وسوء الخلق، فلنورد جملة من ذلك لتعلم آية حسن الخلق. قال الله تعالى: {قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاَتِهِمْ خَاشِعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوَاةِ فَاعِلُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ فَمَنِ ابْتَغَى وَرَآءَ ذَالِكَ فَأُوْلَائِكَ الْعَادُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ...} (المؤمنون: ١- ٥)، وقال تعالى: {وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُواْ سَلاَماً... وَالَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَاهاً ءَاخَرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلاَ يَزْنُونَ...} (الفرقان: ٦٣-٦٧). من أشكل عليه حاله فليعرض نفسه على هذه الآيات، فوجود جميع هذه الصفات علامة حسن الخلق، وفقد جميعها علامة سوء الخلق، ووجود بعضها دون بعض يدل على البعض دون البعض، فليشتغل بتحصيل ما فقده، وحفظ ما وجده. وقد وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم المؤمن بصفات كثيرة، وأشار بجميعها إلى محاسن الأخلاق، ﷺ: (من كان يُؤْمِنُ باللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فلا يُؤْذِ جَارَهُ وَمَنْ كان يُؤْمِنُ باللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ وَمَنْ كان يُؤْمِنُ باللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أو لِيَصْمُتْ). وقال: (لَا يُؤْمِنُ أحدكم حتى يُحِبَّ لِأَخِيهِ ما يُحِبُّ لِنَفْسِهِ). وقال: (أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا) ويقول الداعية المعاصر الشيخ محمد الغزالي رحمه الله تعالى: "الإيمان قوة عاصمة عن الدنايا، دافعة إلى المكرمات، ومن ثمَّ فإن الله عندما يدعو عباده إلى خير، أو يُنفرهم من شر، يجعل ذلك مقتضى الإيمان المستقر في قلوبهم. وما أكثر ما يقول في كتابه: {يا أيها الذين آمنوا} ثم يذكر بعدُ ما يُكلفهم به، مثل قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ} (التوبة:١١٩)، و{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا} (الأحزاب: ٧٠) ...وقد وضح صاحب الرسالة صلى الله عليه وسلم أن الإيمانَ القوي، يَلِدُ الخُلُقَ القويَّ حَتْماً، وأن انهيار الأخلاق مَرَدُّهُ إلى ضَعف الإيمان، أو فُقدانه، بحسب تفاقم الشر أو تفاهته... فالرجلُ الصفيقُ الوجه، المعوجُ السلوك، الذي يقترف الرذائل غير آبه لأحد، يقول رسول الإسلام في وصف حاله: (الحياء والإيمان قرناء جميعاً فإذا رفع أحدهما رفع الآخر)!. والرجل الذي ينكب جيرانه ويرميهم بالسوء، يحكم الدين عليه حكماً قاسياً، فيقول فيه الرسول ﷺ: (واللَّه لَا يُؤْمِنُ واللَّه لَا يُؤْمِنُ واللَّه لَا يُؤْمِنُ قِيلَ وَمَنْ يا رَسُولَ اللَّهِ قال الذي لَا يَأْمَنُ جَارُهُ بوائقه). وتجد الرسول ﷺ عندما يعلم أتباعه الإعراض عن اللغو، ومجانبة الثرثرة والهذر... وهكذا يمضي في غرس الفضائل وتعهدها حتى تؤتي ثمارها، معتمداً على صدق الإيمان وكماله.."

إذاً فالدين هو مصدر الأخلاق الفاضلة، وهو الرقيب عليها، وهو المقوِّم لها إذا انحرفت.

ثانياً- الشمول:

تتنوع الأخلاق الإسلامية وتتسع لتشمل جميع المجالات، ومن هذه المجالات:

١- خُلق مع الله ومع النبي ﷺ: وردت نصوص كثيرة من الكتاب والسنة تبين أن خُلق المسلم مع الله ومع النبي عليه الصلاة والسلام يتمثل في السمع والطاعة، والتسليم والرضا بما جاء به. من ذلك قول الله تعالى: {إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا} (النور،٥١)، وقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللهِ وَرَسُولِهِ} (الحجرات،١). وكذلك تعظيم شعائر الله (بتعظيم كتابه، وتعظيم بيوته، وتعظيم حرماته) والنصح لله ولكتابه ولرسوله. عن تميم الداري رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: (الدِّينُ النَّصِيحَةُ) قُلْنَا: لِمَنْ؟ قَالَ: (لِلَّهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ). وتعني أن عماد أمر الدين النصيحة. وتكون النصيحة لله بتقديم حقه على حق الناس. ولكتابه بتعلمه وتعليمه، وتفهم معانيه، والعمل بما فيه، والدفاع عنه. ولرسوله بتعظيمه ونصرة دينه، وإحياء سنته بتعلمها وتعليمها، والاقتداء به في أقواله وأفعاله، ومحبته ومحبة أتباعه.

٢- خُلق مع أولياء الأمور: ويتمثل في طاعة أوامرهم في المعروف، وبذل النصح لهم. قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ} (النساء ٥٩). وكما في رأينا الحديث السابق أن من الدين: النَّصِيحَةُ لِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ. وتعني إعانتهم على ما حملوا القيام به من المسؤوليات، وتنبيههم عند الغفلة، وجمع الكلمة عليهم، ودفعهم عن الظلم بأحسن أسلوب وألطف عبارة.

٣- خُلق مع عامة المسلمين: النصوص في بيان ما ينبغي أن يتحلى به المسلم مع المسلم، من الأخوة والإيثار والنصح والمحبة والتعاون والنصرة والولاية أكثر من أن تحصى. من ذلك قول النبي ﷺ: (الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يَخْذُلُهُ وَلَا يَحْقِرُهُ ... بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ دَمُهُ وَمَالُهُ وَعِرْضُهُ). وفي الحديث السابق: النَّصِيحَةُ لعامة المسلمين. وتعني الشفقة عليهم، والسعي فيما ينفعهم، وكف الأذى عنهم، وأن يحب لهم ما يحب لنفسه.

٤- خُلق مع غير المسلم: وردت نصوص عديدة تبين ما ينبغي أن يتحلى به المسلم مع غير المسلم من العدل والإحسان وحسن المعاملة، من ذلك قوله تعالى: {لَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ} (الممتحنة٨)، وقول النبي ﷺ: (ألا من ظَلَمَ مُعَاهِدًا أو انْتَقَصَهُ أو كَلَّفَهُ فَوْقَ طَاقَتِهِ أو أَخَذَ منه شيئا بِغَيْرِ طِيبِ نَفْسٍ فَأَنَا حَجِيجُهُ يوم الْقِيَامَةِ). والمعاهَد من يعيش في كنف المجتمع المسلم مسالماً.

٥- خلق مع الكبير والصغير: يقول النبي ﷺ :(ليس مِنَّا من لم يَرْحَمْ صَغِيرَنَا وَيُوَقِّرْ كَبِيرَنَا). وقوله: (ليس منا) يدل على عِظم وخطورة هذه الجريمة الأخلاقية. فهو ليس على أخلاق المسلمين، ولا على نهجهم ومسلكهم في الحياة. وإذا لم يكن على أخلاق المسلمين ومسلكهم، فليحذر من عاقبة أمره، والطريق الذي اختاره لنفسه. وهناك خُلق مع الوالدين، ومع الأبناء والبنات، ومع الزوج والقرابة، ومع الضيف والمعلم والصديق، ومع البهائم والجمادات ... وهكذا. يقول الداعية الكبير الشيخ محمد الغزالي رحمه الله تعالى: "قد تكون لكل دين شعائر خاصة به، تعتبر سمات مميزة له. ولا شك أن في الإسلام طاعات معينة، ألزم بها أتباعه، وتعتبر فيما بينهم أموراً مقررة لا صلة لغيرهم بها، غير أن التعاليم الخُلقية ليست من هذا القبيل؛ فالمسلم مكلف أن يلقى

أهل الأرض قاطبة بفضائل لا ترقى إليها شبهة، فالصدق واجب على المسلم مع المسلم وغيره، والسماحة والوفاء والمروءة والتعاون والكرم.. الخ. وقد أمر القرآن الكريم ألا نتورط مع اليهود أو النصارى في مجادلات تهيج الخصومات ولا تجدي الأديان شيئاً. قال الله تعالى: {وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ} (العنكبوت٤٦)، واستغرب من أتباع موسى وعيسى أن يشتبكوا مع المسلمين في منازعات من هذا النوع الحاد: {قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ} (البقرة١٣٩). وحدث أن يهودياً كان له دَيْنٌ على النبي، فجاء يتقاضاه قائلاً: إنكم يا بني عبد المطلب قوم مُطل!! فرأى عمر ابن الخطاب أن يُؤدب هذا المتطاول على مقام الرسول، وهَمَّ بسيفه يبغي قتله. لكن الرسول ﷺ أسكت عمر قائلاً: (أنا وهو أولى منك بغير هذا، تأمره بحُسن التقاضي، وتأمرني بحُسن الأداء)، وقد أمر الإسلام بالعدل ولو مع فاجر أو كافر. قال ﷺ: (دعوة المظلوم مُستجابة، وإن كان فاجراً ففجوره على نفسه). وبهذه النصوص، مَنع الإسلام أبناءه أن يقترفوا أية إساءة نحو مخالفيهم في الدين. ومن آيات حسن الخلق مع أهل الأديان الأخرى ما ورد عن ابن عمر: أنه ذبحت له شاة في أهله ؟ فلما جاء قال: أهديتم لجارنا اليهودي؟ أهديتم لجارنا اليهودي؟. سمعت رسول الله ﷺ يقول: (ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه)... ويؤكد هذه الحقيقة حديث الرسول لقومه وعشيرته، فقد رشحتهم مكانتهم في جزيرة العرب لسيادتها، وتولي مقاليد الحكم بها. ولكن النبي أفهمهم ألا دوام لملكهم إلا بالخُلق وحده... ومن أقوال الإمام ابن تيمية رحمه الله: (إن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة. ولا يقيم الدولة الظالمة وإن كانت مسلمة). إن الخلق في منابع الإسلام الأولى من كتاب وسنة هو الدين كله، وهو الدنيا كلها".

ثالثاً- الثبات:

يقصد بالثبات أن الفضائل الأساسية للمجتمع من صدق ووفاء وأمانة وعفة وإيثار مرتبطة بالنظام العام للشريعة، وهي أمور لا يستغني عنها مجتمع كريم مهما تطورت الحياة وتقدم العلم، بل تظل قيماً فاضلة ثابتة، لا تتغير ولا تتأثر بتغير الظروف الاجتماعية والأحوال الاقتصادية. ولعل السبب الذي يجعل هذه الأخلاق ثابتة هو:

١- أنها مرتبطة بالفطرة البشرية، وهي تتصف بالثبات، كما في الحديث: (كل مولود يولد على الفطرة). غير أن ذلك وحده لا يكفي، فكم من الأمور التي هي في أصلها نابعة من الفطرة إلا أنها تغيرت وانحرفت بفعل الأهواء والمصالح! ومن هنا جاءت أهمية السبب الآخر.

٢- كونها نابعة من الدين الذي هو من عند الله سبحانه وتعالى، وهو أعلم بما يصلح شأن الإنسان ويحقق له السعادة والخير. قال تعالى: {أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ} (الملك١٤)، والدين بمثابة السياج الذي يحافظ على متطلبات الفطرة، ويعزز وجودها، ويحميها من الانحراف.

ويترتب على خاصية الثبات هذه أن الأخلاق مختلفة عن التقاليد؛ لأن التقاليد تتغير بين الفينة والأخرى، بتغير مسوغات وجودها، وليس كذلك الأخلاق، لأنها تقوم على أسس ثابتة كالحق والعدل والخير.

رابعاً- الجمع بين الواقعية والمثالية:

فأما كون الأخلاق في الإسلام واقعية فتعني أنها؛ عملية وقابلة للتطبيق، ولا يستعصي على أحد تطبيقها وتجسيدها في حياته. وأما كونها في الوقت ذاته مثالية أيضاً فتعني أن في الناس من تتوق نفسه إلى معالي

الأمور، ولا يرضى لنفسه بأن يكون كعامة الناس. فهو أبداً يتوق إلى المعالي، وله نفسٌ أبيةٌ تسعى دائماً للتحلي بالفضائل والقيم السامية، ففسح الشرع في ذلك. فإذاً الإسلام راعى بتشريعه استعدادات هذا وذاك، ولم يحمل الناس على ما لا يطيقون، أو ما يمكن أن تمله نفوسهم وتتقاصر عنه. ومن ثَمَّ فقد شرع العدل، بأن يصل كل ذي حق إلى حقه، غير أنه حثَّه في الوقت ذاته على الإحسان، بأن يصفح ويتجاوز ويضحي، وهي مرتبة فوق العدل. قال تعالى في تقرير قاعدة العدل: { وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى} (المائدة:٨). وقال جل جلاله في تقرير مبدأ المثالية والإحسان: {وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ} (الشورى:٤٠)، وقال أيضاً: {وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ، وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ} (النحل:١٢٦). والأخلاق الإسلامية في هذا يختلف عن الدعوات المثالية التي نادى بها بعض الفلاسفة من أمثال أفلاطون في كتابه الجمهورية الفاضلة، إذ إنها مما لا يطيقها معظم الناس، ولا تستقيم معها حياتهم، وسرعان ما يملونها، وتسأم من فعلها نفوسهم لما فيها من تكلف شديد. قال تعالى: {فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ} (التغابن:١٦). ويقول ﷺ: (عَلَيْكُمْ مَا تُطِيقُونَ مِنْ الْأَعْمَال فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَمَلُّ حَتَّى تَمَلُّوا).

خامساً- الوسطية:

وتعني أن الأخلاق الإسلامية وسطٌ بين طرفين متضادين. وتتجلى هذه الوسطية والاعتدال في تلبيته لمختلف حاجات الإنسان ورغباته ولكن بعد ضبطها بما يحافظ عليها ويبقيها ضمن دائرة النفع والخير. من ذلك على سبيل المثال:

١- **الحكمة**: فقد اعتبرها الإسلام فضيلة مطلوبة، وتأتي بين رذيلتين منكرتين، هما: الخِبُّ والبَلَه. قال تعالى في الثناء على الحكمة: {يُؤْتِي الحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا} (البقرة:٢٦٩). والخِبُّ هو: المبالغة في الاتصاف بالمكر والحيلة وسوء الظن. والبله هو: المبالغة في السذاجة والسفه.

٢- **السخاء**: وهو خلقٌ كريمٌ ويقع بين رذيلتين، هما: الإسراف، والتقتير. قال تعالى: {وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا} (الإسراء:٢٩)، وقال: {وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً} (الفرقان:٦٧).

٣- **الشجاعة**، وهي خلقٌ كريمٌ ووسطٌ بين رذيلتين هما: التهور، والجبن. والتهور هو: الزيادة في الإقدام على الأمور المحظورة التي يوجب العقل الإحجام عنها. قال تعالى: {وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ} (البقرة:١٩٥). والجبن هو: المبالغة في الخوف والحذر بما تأباه الرجولة والمروءة. قال تعالى في وصف المنافقين: {رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ} (التوبة:٨٧).

٤- **العفة**، وهي خلقٌ كريمٌ، وتأتي وسطاً بين رذيلتي الشره، والخمود. والشره هو: المبالغة في طلب الشهوة واللذات. والخمود هو: قصور الشهوة عن دفعه نحو تحصيل أسبابها.

٥- **الحياء**، وهو خلقٌ كريمٌ، ويأتي وسطاً بين رذيلتي الوقاحة أو صفاقة الوجه من جهة، والخور والمهانة من جهة أخرى.

٦- **التواضع**، وهو خلقٌ كريمٌ، ويأتي وسطاً بين رذيلتي الكِبْر والعلو من جهة، والذِّلة والحقارة من جهة أخرى. وهكذا فما من صفة أخلاقية جاء بها الإسلام أو أقرها، إلا ونجدها وسطاً تستجيب لدواعي الفطرة في الإنسان، وتحقق له ما فيه المصلحة والخير.

نهاية المحاضرة الثالثة ...

المحاضرة الرابعة..

وسائل اكتساب الأخلاق

مقدمة:

ذكرنا فيما تقدم أن من أقسام الخلق ما هو فطري. بمعنى أن في الناس مَنْ تشمله العناية الإلهية فيولد سليم الفطرة، كامل العقل، حسن الخُلق، عالِماً مؤدَّباً بغير معلِّمٍ أو مؤدِّبٍ، كما هو الحال في الأنبياء والرسل الكرام عليهم السلام الذين اصطفاهم الله واختارهم، وجعلهم بفضله قدوات صالحة تمثل قمة الكمال البشري. وهناك مِنَ الناس مَنْ يمُنُّ اللهُ عليه ببعض الصفات الخُلقية الحميدة، كما في حديث أشج عبد القيس حين أثنى عليه النبي ﷺ وقال: (إن فيك خصلتين يحبهما الله ورسوله، الحلم والأناة). فسأل النبي أهما من كسبه، أم جبله الله عليهما؟ فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: (بل الله جبلك عليهما). كما أن من الخُلق ما هو مكتسب، يُحَصِّلُه المرء بجده واجتهاده، ومن خلال وسائل معينة. يمكن إجمالها فيما يأتي:

أولاً- التدريب العملي:

إن أهم الوسائل التي تعين المرء على اكتساب الأخلاق التدريب العملي، وذلك من خلال مجاهدته لنفسه، وحمْلِها على الأعمال التي يتطلبها الخُلق المطلوب. فمن أراد أن يُحَصِّلَ لنفسه خُلق الجود مثلاً، فإن سبيله إلى ذلك تَكلُّفَ تعاطي فعل الجود -وهو بذل المال- في البدايات. ثم يستمر على ذلك البذل، ويطالب نفسه به، ويُواظب عليه تَكَلُّفاً، مجاهداً نفسه، حتى يُصبحَ ذلك خُلقاً له، وطبعاً فيه، فيتيسرَ عليه، ويصير به جواداً.

ومن أراد أن يُحَصِّلَ لنفسه خُلق التواضع وقد غلب عليه الكِبْرُ، فطريقه أن يواظب على أفعال المتواضعين مدة مديدة، يجاهد نفسه فيه، ويتكلفُ إلى أن يصبح ذلك خُلقاً له وطبعاً فيه، فيتيسر عليه، ويصير به متواضعاً.

وفي بيان هذا الدور المهم للتدريب العملي ورياضة النفس على الفضائل يقول النبي ﷺ: (مَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللَّهُ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ، وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللَّهُ، وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنْ الصَّبْرِ). أي أن من دَرَّبَ نفسه وحملها على ما يريد، وجد الاستجابة له بمشيئة الله. فالبداية تكون من العبد، ثم يأتيه التوفيق من الله تعالى. مَثَلُه في ذلك مثل البدن. "فكما أن البدن في الابتداء لا يخلق كاملاً، وإنما يكمل ويقوى شيئاً فشيئاً بالنشوء والتربية بالغذاء، فكذلك النفس تُخْلَقُ ناقصةً، قابلةً للكمال، وإنما تكمل شيئاً فشيئاً بالتربية وتهذيب الأخلاق، والتغذية بالعلم". ويمكن توضيح ذلك من خلال مثالٍ ملموسٍ من واقع حياتنا، وهو رغبة أحدنا في أن يصبح خطاطاً. فإننا جميعاً نحكم بأن سبيله إلى تحقيق هذه الغاية هو أن يتعاطى الخط، ويواظب عليه مدة طويلة، ويقلد الخطاطين في خطهم، ويتشبه بهم تَكلُّفاً في البداية، حتى يصير الخطُ الحسَنُ صفةً راسخةً في نفسه، فيصدر منه طبعاً وسجيةً دون تكلف. ومن أراد أن يصبح فقيهاً، فإن سبيله إلى ذلك تعاطي فعل الفقهاء، من كثرة القراءة في كتب الفقه، وتكرار النظر فيها، حتى ينعكس منه على قلبه صفة الفقه، فيصير فقيه النفس. فإذاً يكون تَكلُّفُ الفعل الخُلقي ابتداءً، ثم يُصبحُ طبعاً انتهاءً. وهذا ناتج عن العلاقة المتبادلة بين القلب والجوارح. حيث إنَّ كلَّ صفةٍ تظهرُ في القلب، ينعكس أثرها على الجوارح، فتتحرك وفقها. وكل فعلٍ يجري على الجوارح، ينعكس أثره على القلب، ويؤثر فيه. فكلٌ منهما يؤثر في الآخر، ويتأثر به.

ومما ينبغي التنبه له أن مرور الزمن وكثرة التدريب يُكَوِّنان لدى المرء شعوراً باللذة عند تعاطيه لهذا الخلق. وعندها فقط يكون قد أصبح خُلُقاً له. فالسخي إذاً هو الذي يشعر باللذة لدى بذله المال، دون الذي يبذله عن كره. والمتواضع هو الذي يشعر باللذة لدى فعله التواضع، ويواظب عليه مواظبة المشتاق. وفي عبادته ومناجاته لله يشعر براحة وطمأنينة لا مثيل لها. يؤكد هذا المعنى قول النبي صلى الله عليه وسلم: (وجعلت قرة عيني في الصلاة). وهذا الشعور بلذة الطاعة وكره المعصية يزداد بكثرة المداومة والاستمرار. ومن ثَمَّ كان جواب النبي ﷺ لمن سأله: أي الناس خير؟ قال: (من طال عُمْره، وحسُنَ عمله). وهذا ما كان يرغب الأنبياء والصالحين من عباد الله في طول العمر.

ثانياً- الجليس الصالح والبيئة الصالحة:

وذلك من خلال حسن اختيار الأصحاب والأصدقاء الذين يكونون عوناً له على فعل الخير، ومجانبة الشر. إذ كما قال النبي ﷺ: (الْمَرْءُ على دِينِ خَلِيلِهِ فَلْيَنْظُرْ أحدكم من يُخَالِلُ)، والطبع يسرق من الطبع الخير والشرَّ معاً. كما أن على المرء أن يحرص على مجالسة الصالحين، مجالسة من يُذَكِّره بالله، ويرغبه في عمل الخير، وبما عند الله تعالى، وينفره من عمل الشر، وما يجلب له السخط والغضب من الله تعالى. وقد مَثَّل الرسول ﷺ لذلك بقوله: (مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالسَّوْءِ كَحَامِلِ الْمِسْكِ وَنَافِخِ الْكِيرِ، فَحَامِلُ الْمِسْكِ إِمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً، وَنَافِخُ الْكِيرِ إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ رِيحًا خَبِيثَةً). يقول الإمام النووي رحمه الله في تعليقه عليه: "في الحديث تمثيله ﷺ الجليس الصالح بحامل المسك، والجليس السوء بنافخ الكير، وفيه فضيلة مجالسة الصالحين وأهل الخير والمروءة ومكارم الأخلاق والورع والعلم والأدب، والنهي عن مجالسة أهل الشر وأهل البدع ومن يغتاب الناس أو يكثر فُجْرُه وبطالته ونحو ذلك من الأنواع المذمومة" ويقول الشيخ ناصر السعدي رحمه الله: "اشتمل هذا الحديث على الحث على اختيار الأصحاب الصالحين، والتحذير من ضدهم. ومثل النبي صلى الله عليه وسلم بهذين المثالين، مبيناً أن الجليس الصالح: جميع أحوالك معه وأنت في مغنمٍ وخير، كحامل المسك الذي تنتفع بما معه من المسك إما بهبة، أو بعوض. وأقل ذلك مدة جلوسك معه، وأنت قرير النفس برائحة المسك. فالخير الذي يصيبه العبد من جليسه الصالح أبلغ وأفضل من المسك الأذفر. فإنه إما أن يعلمك ما ينفعك في دينك ودنياك، أو يهدي لك نصيحة، أو يحذرك من الإقامة على ما يضرك، فيحثك على طاعة الله، وبر الوالدين، وصلة الأرحام، ويبصرك بعيوب نفسك، ويدعوك إلى مكارم الأخلاق ومحاسنها، بقوله وفعله وحاله. فإن الإنسان مجبول على الاقتداء بصاحبه وجليسه. والطباع والأرواح جنود مجندة، يقود بعضها بعضاً إلى الخير أو إلى ضده. وأما مصاحبة الأشرار: فإنها بضد جميع ما ذكرنا. وهم مضرة من جميع الوجوه على من صَاحَبَهُمْ، وشَرٌ على من خالطهم. فكمْ هلك بسببهم أقوامٌ! وكم قادوا أصحابهم إلى المهالك من حيث يشعرون، ومن حيث لا يشعرون! ولهذا كان من أعظم نِعم الله على العبد المؤمن أن يوفقه لصحبة الأخيار. ومن عقوبته لعبده أن يبتليه بصحبة الأشرار. صحبة الأخيار توصل العبد إلى أعلى عليين. وصحبة الأشرار توصله إلى أسفل سافلين. صحبة الأخيار توجب له العلوم النافعة، والأخلاق الفاضلة، والأعمال الصالحة. وصحبة الأشرار تحرمه ذلك أجمع: {وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَالَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا، يَاوَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا، لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا} الفرقان(٢٧- ٢٩). إن أقل ما تستفيده من الجليس الصالح -

وهي فائدة لا يستهان بها - أن تنكف بسببه عن السيئات والمعاصي، رعايةً للصحبة، ومنافسة في الخير، وترفعاً عن الشر، وأن يحفظك في حضرتك ومغيبك، وأن تنفعك محبته ودعاؤه في حال حياتك وبعد مماتك، وأن يدافع عنك بسبب اتصاله بك، ومحبته لك. وتلك أمور لا تباشر أنت مدافعتها، كما أنه قد يصلك بأشخاص وأعمال ينفعك اتصالك بهم. وفوائد الأصحاب الصالحين لا تعد ولا تحصى. وحسب المرء أن يعتبر بقرينه، وأن يكون على دين خليله" ويؤكد ما أسلفناه من أثر البيئة الفاسدة أو الصالحة على المرء، قول النبي ﷺ: (كَانَ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ رَجُلٌ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا، فَسَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الأَرْضِ فَدُلَّ عَلَى رَاهِبٍ فَأَتَاهُ، فَقَالَ: إِنَّهُ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا، فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ؟ فَقَالَ: لا، فَقَتَلَهُ فَكَمَّلَ بِهِ مِائَةً، ثُمَّ سَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الأَرْضِ، فَدُلَّ عَلَى رَجُلٍ عَالِمٍ، فَقَالَ: إِنَّهُ قَتَلَ مِائَةَ نَفْسٍ فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ؟ فَقَالَ: نَعَمْ، وَمَنْ يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ التَّوْبَةِ، انْطَلِقْ إِلَى أَرْضِ كَذَا وَكَذَا؛ فَإِنَّ بِهَا أُنَاسًا يَعْبُدُونَ اللَّهَ فَاعْبُدْ اللَّهَ مَعَهُمْ، وَلا تَرْجِعْ إِلَى أَرْضِكَ فَإِنَّهَا أَرْضُ سَوْءٍ، فَانْطَلَقَ حَتَّى إِذَا نَصَفَ الطَّرِيقَ أَتَاهُ الْمَوْتُ، فَاخْتَصَمَتْ فِيهِ مَلائِكَةُ الرَّحْمَةِ وَمَلائِكَةُ الْعَذَابِ، فَقَالَتْ مَلائِكَةُ الرَّحْمَةِ: جَاءَ تَائِبًا مُقْبِلا بِقَلْبِهِ إِلَى اللَّهِ، وَقَالَتْ مَلائِكَةُ الْعَذَابِ: إِنَّهُ لَمْ يَعْمَلْ خَيْرًا قَطُّ، فَأَتَاهُمْ مَلَكٌ فِي صُورَةِ آدَمِيٍّ فَجَعَلُوهُ بَيْنَهُمْ، فَقَالَ: قِيسُوا مَا بَيْنَ الأَرْضَيْنِ؛ فَإِلَى أَيَّتِهِمَا كَانَ أَدْنَى فَهُوَ لَهُ، فَقَاسُوهُ فَوَجَدُوهُ أَدْنَى إِلَى الأَرْضِ الَّتِي أَرَادَ، فَقَبَضَتْهُ مَلائِكَةُ الرَّحْمَةِ). فقد طالبه الرجلُ العالِمُ بتغيير بيئته الفاسدة. قال النووي: "قال العلماء: في هذا استحبابُ مفارقة التائب المواضعَ التي أصاب بها الذنوب، والأخدانَ المساعدين له على ذلك، ومُقاطعتهم ما داموا على حالهم، وأن يستبدل بهم صُحبة أهل الخير والصلاح والعلماءِ والمتعبدين الورعين، ومنْ يُقتدى بهم ويُنْتفَعُ بصحبتهم".

ثالثاً- القدوة الحسنة:

الإنسان بطبعه يميل إلى تقليد غيره ومحاكاته، فالضعيف يقلد القوي، والصغير يقلد الكبير، والفقير يقلد الغني، ممن نال إعجابه، واستحوذ على رضاه. وهذا أمرٌ واقعٌ ومحسوسٌ في دنيا الناس، لا يتجادل فيه اثنان. وقد قصَّ الله علينا في كتابه العزيز حال المشركين، ونبَّه إلى أن الذي قادهم إلى الضلال والكفر إنما هو تقليدهم للآباء والأسلاف من غير تَبَصُّرٍ وإعمالٍ للعقل. قال تعالى: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ} (البقرة: ١٧٠). فالمنكر عليهم ليس مجرد التقليد، وإنما التقليد القائم على التبعية العمياء، وعلى تعطيل العقل! ولو كان قائماً على الفِكْر وحُسْن الاختيار لكان مقبولاً، بل مطلوباً كما في سير الأنبياء السابقين عليهم السلام التي قصها الله علينا، ثم قال: {أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ} (الأنعام: ٩٠) فأمر نبيه محمداً ﷺ بالاقتداء بهم في ملاقاتهم لأنواع الابتلاء، وصبرهم على الشدائد وتحملهم للأذى في سبيل الدعوة، فما كَلُّوا ولا مَلُّوا ولا يئسوا. كما أن الله سبحانه قص علينا كثيراً من جوانب حياة الرسول (كتعظيمه لله، ومحبته وإخلاصه له، وخشيته منه، ورأفته ورحمته بالعباد...) وأثنى على أخلاقه العظيمة، وأمر الأمة المسلمة بالاقتداء به ﷺ، فقال: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا} (الأحزاب: ٢١). لقد اختاره الله قدوة ومثلاً كاملاً للطامحين في الوصول إلى الكمال البشري. ولئن انتقل الرسول صلى الله عليه وسلم إلى جوار ربه، فإن سيرته العطرة قد حُفِظَتْ لنا، وفيها ما يكفي أن يكون شاهداً على سمو روحه، ورفعة أخلاقه، لنتمكن من التأسي به، وتقوم علينا الحجة. إن الشخصية القيادية تفرض نفسها على الآخرين، وتنتزع منهم

الإعجاب رغماً عنهم. وإن ميادين الحياة التي يمكن من خلالها أن تفرض هذه الشخصية أو تلك نفسها على الآخرين كثيرة جداً، فهذا في الشجاعة، وذاك في سداد الرأي والحكمة، وآخر في التربية، وآخر في الإحسان والإيثار وآخر في كظم الغيظ، وهكذا.

وإن الأسباب التي تدفع الناس للتأسي بالقدوة في اكتساب الفضائل كثيرة، منها:

- القدوة الصالحة محل تقدير وإعجاب الناس، وهو ما من شأنه أن يدفع الشخص المحروم من هذا التقدير والإعجاب إلى تقليد القدوة ومحاكاته لعله يصبح يوماً ما مثله، فيندفع لتقليده، ومع مرور الوقت يتحول ذلك لديه إلى خلق مكتسب.
- إن وجود القدوات الصالحة، والنماذج الطيبة الراقية، يعطي الآخرين قناعة بأن بلوغ هذه الفضائل أمرٌ ممكنٌ، وهو ما يدفعهم إلى محاولة التخلق بمثل أخلاقهم.
- النفس البشرية تتأثر بالأمور العملية أكثر من تأثرها بالأمور النظرية، وإن موقفاً عملياً واحداً ربما يؤثر أكثر من عشر محاضرات نظرية، فمهما حثَّ أحدنا الناس على الصبر والتضحية سيبقى تأثيره قليلاً بالمقارنة مع موقف عملي يُبتلى فيه أحدُنا، فيظهر الصبر والجلد والتضحية. وكثيراً ما يتردد على الألسن مقولة: "الرجال مواقف". وموقفٌ واحدٌ قد يرفعُ المرءَ أو يسقطه.

إن الناظر في سير العظماء لن يجد لهم بالضرورة خطباً بليغةً، أو محاضراتٍ منمقةً، وإنما يجد المواقف. فمن ينظر إلى سيرة أبي بكر أو عمر أو عثمان أو علي رضي الله عنهم مثلاً، فإنه سيجد أن أكثر ما يُعرفُ ويُشتهَرُ عنهم، مواقفهم الحاسمة في نصرة الدين، ووقوفهم الحازم في وجه أعدائه. إن أكثر ما يعرفه الناس عامة من سيرة أبي بكر رضي الله عنه، صحبته للنبي في هجرته، وتضحيته ببذل النفس والمال فداءً للرسول ﷺ ولدعوته. وكذا ثباته على الحق برباطة جأش يوم وفاة النبي صلى الله عليه وسلم، وقوله في الصحابة: أيها الناس من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله، فإن الله حي لا يموت، ومثل ذلك وقفته الحازمة في وجه المرتدين وفي وجه مانعي الزكاة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم، وقوله: أينقص الدين وأنا حي، و الله لو لم يخرج إليهم أحدٌ لقاتلتهم بسيفي، والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة . وإن أكثر ما يُعرفُ من سيرة الإمام أحمد بن حنبل امتناعه عن القول بخلق القرآن، وتحمله التعذيب والسجن نصرةً للحق حتى قال فيه علي بن المديني رحمه الله: "إن الله أعزَّ هذا الدين بأبي بكر يوم الردة، وبأحمد يوم المحنة".

ومما قيل في التأكيد على الأثر البالغ للفعل: "عَمَلُ رجلٍ في ألف رَجُل، أبلغُ من قول ألفِ رجلٍ في رجل".

إن من واجب المصلحين والدعاة المربين إبراز النماذجَ الصالحةَ من أسلافنا من الصحابة والتابعين، وسير العلماء الربانيين، والزهاد الأتقياء العابدين، والقادة الأفذاذ الفاتحين، والمربين الناجحين؛ لتتحرك الهمم نحو التأسي بهم، والسير على نهجهم، والتخلق بأخلاقهم.

رابعاً- الضغط الاجتماعي:

ونعني به المجتمع المسلم، بما يشكله من رقابة على سلوك الأفراد، ويُلزمهم بفضائل الأخلاق. وذلك أن الفرد يعيش مع الناس داخل هذا المجتمع أو ذاك، يحتاجهم في شؤون حياته، ولا يستغني عنهم، ويحتاج منهم التقدير والاحترام. فإن أقدم على تصرف غير أخلاقي، فإنه سيجد من يحاسبه على سلوكه ذاك، وسيشعره بأن سلوكه غير مقبول، وأن عليه أن لا يعاوده. ويوماً بعد يوم مع هذه الرقابة من المجتمع، ومع الضغط الذي

يشكله على السلوك المنحرف، فإن صاحبه سيهجره، وسيبدله بسلوكٍ مقبول، يجلب له الرضا والتقدير ممن حوله، وسينتهي الأمر باستقامة خلقه. ومما يجدر ذكره أن الضغط الاجتماعي يختلف عن البيئة الصالحة التي سبق الحديث عنها!. إذ البيئة تقتصر على أولئك الذين يعايشهم المرء بشكل مباشر، وبصورة مستمرة. وأما الضغط الاجتماعي فهو أعم؛ إذ إنه يمتد ليشمل المجتمع كله، بمختلف طبقاته وأطيافه وفئاته، ومن خلال مختلف وسائل الإعلام من جرائد ومجلات وقنوات وإذاعات وخطب ومواعظ وحوارات، فيكون مسؤولاً أمامها جميعاً بما تُكَوِّنه من رأيٍ عامٍ من القرّاء والمستمعين على امتداد البلاد أو العالم الإسلامي لمحاسبة المنحرف. وهناك نصوصٌ كثيرةٌ من الكتاب والسنة تؤصل لهذه المسؤولية، نذكر منها:

- قول الرسول ﷺ: (إِنَّ أَوَّلَ مَا دَخَلَ النَّقْصُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ، كَانَ الرَّجُلُ يَلْقَى الرَّجُلَ، فَيَقُولُ: يَا هَذَا، اتَّقِ اللَّهَ وَدَعْ مَا تَصْنَعُ؛ فَإِنَّهُ لاَ يَحِلُّ لَكَ، ثُمَّ يَلْقَاهُ مِنَ الغَدِ، فَلاَ يَمْنَعُهُ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ أَكِيلَهُ وَشَرِيبَهُ وَقَعِيدَهُ، فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ ضَرَبَ اللَّهُ قُلُوبَ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ، ثُمَّ قَالَ: {لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ كَانُوا لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ... فاسقون} (المائدة: ٧٨-٨١)، ثُمَّ قَالَ: كَلاَّ وَاللَّهِ، لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ، وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَلَتَأْخُذُنَّ عَلَى يَدِ الظَّالِمِ، وَلَتَأْطُرُنَّهُ عَلَى الْحَقِّ أَطْرًا، وَلَتَقْصُرُنَّهُ عَلَى الْحَقِّ قَصْرًا). فالحديث يبين وجوب الاستمرار في إنكار المنكر، واستمرار الضغط على مرتكبه من مختلف أبناء المجتمع حتى يرتدع ويَكُفَّ عن فعله الشائن، وإلا حلَّ بنا ما حلَّ ببني إسرائيل من العقوبة والعياذ بالله.
- قوله ﷺ: (مَثَلُ القَائِمِ فِي حُدُودِ اللَّهِ وَالوَاقِعِ فِيهَا، كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ، فَصَارَ بَعْضُهُمْ أَعْلاَهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، وَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ المَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ، فَقَالُوا: لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا، فَإِنْ تَرَكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعاً، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوا وَنَجَوْا جَمِيعاً). ومعنى القائم في حُدُودِ اللهِ: المدافع عنها. وهو عكس الواقع فيها. والحديث يؤكد أيضاً مبدأ المسؤولية الجماعية، ويشبه أفراد المجتمع بمختلف فئاتهم بالراكبين في سفينة واحدة، حيث يجمعهم مصير واحد، وأن الغرق والهلاك إذا حلَّ بهم فلن يقتصر على البعض دون البعض، بل سيشمل الجميع، المنحرف لانحرافه، وغيره لسكوته عن الإنكار، كما قال تعالى: {وَاتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً} (الأنفال: ٢٥). ومع مرور الزمن والكف عن الأخلاق السيئة خوفاً من ضغط المجتمع تختفي تلك الأخلاق من حياة أصحابها، ويحل محلها الأخلاق الحميدة.

خامساً- سلطان الدولة:

ونعني به السلطة الحاكمة بما تملكه من قوة ردع، وأجهزة رقابة ومحاسبة. فإنها حين تحاسب المنحرف وتعاقبه على تصرفاته غير الأخلاقية تجعله يكف عنها. وفي ذلك يقول الخليفة الراشد عثمان بن عفان رضي الله عنه: "إن الله لَيَزَعُ بالسلطان ما لا يَزَعُ بالقرآن". أي أن بعض الناس قد لا تردعه نداءات كتاب الله، وما فيه من الترغيب والترهيب، لأن الضعف قد استبد بإيمانهم، وأصبحت قلوبهم ميتةً أو قاسية. وهؤلاء إنما يردعهم الرهبة من السلطان، والخوف من العقوبة. ويوماً بعد يومٍ، ومع مرور الزمن، يتحول هذا الامتناع القسري عن فعل المنكر إلى خُلُقٍ لصاحبه، ويحسُن خُلُقه.

نهاية المحاضرة الرابعة ...

المحاضرة الخامسة..

الإلزام والمسؤولية والجزاء الأخلاقي

أولاً : الإلزام الخلقي:

- تعريف الإلزام الخُلُقي:

الإلزام بصورة عامة هو الفرض والإيجاب أي؛ ما فرضه الشرع وأوجبه علينا من أمر أو نهي، سواءً أكان ذلك في باب العقائد، أم العبادات، أم المعاملات، أم الأخلاق... .

وفي باب الأخلاق يمكن أن يُعَرَّف الإلزام بأنه: تكليفٌ بتشريع خُلُقي.

أو بعبارة أخرى: أمرٌ صادرٌ من الشرع للمكلفين بامتثال خُلُق محمودٍ، أو اجتنابِ خُلُق مذموم.

أي أنه أمرٌ من الله سبحانه، أو من رسوله صلى الله عليه وسلم، للبالغ العاقل، يوجب عليه التحلي بخُلُق محمودٍ كالصدق والعدل ونحوها، أو الابتعادِ والتخلي عن خُلُق مذمومٍ كالكذبِ والرياءِ ونحوها.

- مصادر الإلزام الخلقي:

إن مصدر الإلزام الخلقي –كغيره من الأحكام الشرعية- إنما هو الله سبحانه، قال تعالى: {إِنْ الحُكْمُ إِلَّا لِلهِ} (يوسف: ٤٠)، وقال جل جلاله: {أَلَا لَهُ الخَلْقُ والأَمْرُ} (الأعراف: ٥٤). والعقولُ وإنْ كانت تدرك أحياناً الحسن والقبح في الأشياء؛ كأن تدرك أن الصِّدْقَ حَسَنٌ، والكذبَ قبيحٌ، والأمانةَ حسنةٌ، والخيانةَ قبيحةٌ، إلا أن مناط الثواب والعقاب هو الشرع، وليس العقل، فإن فالتشريع حقٌ لله وحده. ثم إن الله تعالى أمرنا باتباع نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، فقال تعالى: {وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ، وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا} (الحشر: ٧)، وقال أيضاً: {قُلْ أَطِيعُوا اللهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الكَافِرِينَ} (آل عمران: ٣٢). فاتباعنا لنبينا محمد عليه الصلاة والسلام إنما هو استجابةٌ وامتثالٌ لأمر الله سبحانه. وقد بعثه الله إلينا بالقرآن الكريم والسنة المطهرة، وأقام بهما الحجة على العباد. قال تعالى: {رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ} (النساء:١٦٥).

- العوامل التي تعين على تحقيق الالتزام:

ذكرنا أن مصدر الإلزام هو الشرع، غير أن هناك أموراً تعين على تحقيق الالتزام في حياة الناس، وهي متفرعة عن الشرع، ومنضبطة به. وتتمثل في عوامل داخلية: (وهي: الإيمان والعقل والفطرة والضمير الخلقي). وعوامل خارجية: (وهي: المجتمع والسلطة الحاكمة).

العوامل الداخلية للإلزام: وتتمثل كما أسلفنا آنفاً في:

١- الإيمان بالله وباليوم الآخر: إن كثيراً من الممارسات الخلقية الحميدة لا تقوم إلا على أساس الإيمان بالله واليوم الآخر، والطمع بالثواب والرضا من الله تبارك وتعالى وليس من البشر، وذلك كما في مقابلة الإساءة بالإحسان، والصبر على الظلم مع القدرة على الرد، والإنفاق على الأيتام والمحتاجين من غير انتظار الجزاء منهم، والتضحية بالمال مع شدة الحاجة إليه، كما قال الله تعالى: {وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً، إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُوراً}

(الإنسان:٨-٩). يقول ابن القيم رحمه الله: "الإيمان هو روح الأعمال، وهو الباعث عليها، والآمر بأحسنها، والناهي عن أقبحها، وعلى قدر قوة الإيمان يكون أمره ونهيه لصاحبه، وائتمار صاحبه وانتهاؤه"

٢- العقل: وذلك أن الإنسان إذا رأى أن عاقبة فعله ستكون نافعةً ومفيدةً أقْدَمَ عليه. وإذا رأى أنها ستكون ضارةً أو أليمةً أحجمَ عنه. أي أن العقل كثيراً ما يكون وراء الإقدام على التصرفات الأخلاقية الحميدة، والإحجام عن التصرفات المشينة، فالعقل يقود صاحبه إلى الخلق الحميد، وتعطيله يقوده إلى العكس. وفي هذا جاء إخبار الله عن أهل النار بقوله: {وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ} (الملك: ١٠). يقول ابن القيم رحمه الله: "أما العقل فقد وضع الله سبحانه في العقول والفِطَر استحسانُ الصدق والعدل والإحسان والبر والعفة والشجاعة، ومكارم الأخلاق، وأداء الأمانات، وصلة الأرحام، ونصيحة الخَلْق، والوفاء بالعهد، وحفظ الجوار، ونصر المظلوم، والإعانة على نوائب الحق، وقِرى الضيف، وحمل الكَلّ، ونحو ذلك. ووضع في العقول والفِطَر استقباحُ أضداد ذلك".

٣- الفطرة: الإنسان بفطرته السوية السليمة يهتدي إلى الأخلاق الحميدة، ويرتاح لها قلبه وضميره، فالعفة والسخاء والحياء والصدق والشجاعة والإحسان والحلم والأناة كلها قيم أخلاقية راقية تهفو إليها الفِطَر السوية، وتسعى للتحلي بها، على العكس من أضداد تلك الصفات كالخِسَّة وصفاقة الوجه، والجبن، وبذاءة اللسان فإن الفِطَر السليمة تستقبحها وتنفر منها، والإسلام دين الفطرة، قال تعالى: {فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ} (الرُّوم: ٣٠)، ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم: (ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء). ثم يقول أبو هريرة رضي الله عنه: "واقرؤوا إن شئتم: {فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ}". يقول ابن القيم: "والله سبحانه قد أنعم على عباده من جملة إحسانه ونعمه بأمرين هما أصل السعادة، أحدهما: أنْ خَلَقَهم في أصل النشأة على الفِطرة السليمة، فكل مولود يولد على الفطرة حتى يكون أبواه هما اللذان يخرجانه عنها... فإذا تركت النفس وفطرتها لم تُؤْثِرْ على محبة باريها وفاطرها وعبادته وحده شيئاً، ولم تشرك به، ولم تجحد كمال ربوبيته، وكان أحبَّ شيءٍ إليها، وأطوعَ شيءٍ لها، وآثر شيء عندها".

٤- الضمير أو الوازع الديني: ونعني به ذلك الشعور الخفي الذي نحس به في أعماق نفوسنا، يناديا ويدفعنا إلى ممارسة فعل أو الكف عنه. وحين نستجيب له يغمرنا شعور عارم بالراحة واللذة. وأما إذا تجاهلناه حصل معنا العكس تماماً، فنشعر بالانقباض والألم النفسي (ويسمى بوخز الضمير)، ونلوم أنفسنا على ذلك التقصير، ولا نريد أن يطلع عليه أحد. وهذا الضمير إنما يتكون في الفرد في أولى سِنِي حياته، ومن خلال القيم التي تغرس فيه، والثقافة التي ينشأ عليها، والتربية التي يتلقاها، والبيئة المحيطة به. ومن هنا كان دور الدين قوياً بل أساساً في نشأته وصياغته في المجتمع الإسلامي. ولعل في قول النبي صلى الله عليه وسلم: (البرُّ حُسْنُ الخُلُق، والإثْمُ ما حَاكَ في صَدْرِكَ، وَكَرِهْتَ أنْ يَطَّلِعَ عليه الناس)، ما يشير إلى هذا الضمير الخفي، أو الوازع الديني الذي يكون رقيباً على تصرفات المسلم، فيدفعه إلى طيب الأفعال والأقوال، ولو لم تكن نصوص الشرع آمرةً بها، وتكفه عن الفعل الذي لا يليق، ولو لم تكن نصوص الشرع ناهيةً عنها.

ثانياً : العوامل الخارجية:

١- المجتمع: أمر الله سبحانه جماعة المسلمين أن يراقبوا سلوك الأفراد داخل المجتمع، وأن يأخذوا على يد الشارد منهم، والمنحرف عن جادة الحق، وأن يعاقبوه إذا ارتكب من المحظورات ما يستدعي معاقبته ليكون زاجراً له ورادعاً لغيره. قال تعالى: {وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ} (المائدة: ٣٨)، وقال تعالى: {الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ} (النور: ٢)، ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم: (من رأى منكم منكراً، فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان). فالأمة كلها مطالبة بأن تراقب أفعال أبنائها وتصرفاتهم؛ فتأمرهم بالمعروف، وتنهاهم عن المنكر، وتأخذ على يد الظالم والعابث، وإلا نال جميعهم شؤم المعصية وشرورها. قال تعالى محذراً من ذلك: {وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً} (الأنفال:٢٥).

٢- السلطة الحاكمة: إن أهم واجبات السلطة الحاكمة (والمتمثلة بولي الأمر أو من ينوب عنه) هو حملُ الناس على الالتزام بحدود الشرع الحنيف أمراً ونهياً، والتحلي بالأخلاق النبيلة، والابتعاد عن السلوك المنحرف. وهو ما عبر عنه الإمام الماوردي رحمه الله بأربع كلمات فقال: " الإمامة موضوعة لخلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا". وحراسة الدين إنما تكون بتطبيق الشريعة، وردع الخارج عليها. وسياسة الدنيا تكون بمنع المنازعات، وقطع الخصومات، وتحقيق العدل بين الرعية، وإيصال الحقوق إلى أصحابها. ولا شك أن الإمام (أو ولي الأمر) لن يستطيع أن يحقق ذلك كله بمفرده، بل لا بد من معاونة الجهاز المشارك له في إدارة البلاد، والذي يمثل بمجموعه السلطة الحاكمة.

- خصائص الإلزام الخُلُقي:

يمتاز الإلزام الخلقي في الإسلام بجملة من الخصائص أهمها:

أنه إلزام بقدر الاستطاعة. فلا تكليف إلا بما يُطاق. قال تعالى: {لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا} (البقرة:٢٨٦). وهذا مبدأ يقتضيه العدل الإلهي، كما يقتضيه الخلق القويم.

أنه إلزام بما فيه يُسر على الناس، ويسهل تطبيقه. ومن ثَمَّ فلا تكليف بما فيه حرج أو مشقة لم تعتدها نفوس الناس. قال تعالى: {يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ} (البقرة: ١٨٥). وقال تعالى: {وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ} (الحج: ٧٨).

أنه إلزام روعيت فيه الأحوال الاستثنائية، كما في إعفاء ذوي الأعذار من العجزة والضعفاء والمرضى عن الجهاد. قال تعالى: {لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ} (الفتح: ١٧). وكما في الترخص بالتلفظ بالكفر باللسان مع بقاء القلب مطمئناً بالإيمان. قال تعالى: {مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً} (النحل: ١٠٦).

ثانياً: المسؤولية الخلقية:

تعريف المسؤولية: إذا صدر الإلزام من طرفٍ، نتج عنه بالضرورة مسؤولية الطرف الآخر عمَّا ألزم به. وإلا لم يكن إلزاماً، بل اختياراً، ويكون تسميته بالإلزام خطأ.

وقد عرفت المسؤولية بأنها: "التزام الشخص بما يصدر عنه قولاً أو عملاً". أو: تحمل الشخص النتائج المترتبة على ما التزم به من قول أو عمل أو تركٍ.

شروط المسؤولية: ليس كلُّ إنسان مسؤولاً عن أفعاله وأقواله، بل هناك شروط لابد من توافرها حتى تترتب المسؤولية على الفاعل، ويمكن إجمالها فيما يلي:

١- **البلوغ:** وإلا فلو كان صغيراً فلا تكليف ولا مسؤولية عليه، لقصور فهمه عن إدراك معاني خطاب الشرع.

٢- **العَقْل:** وإلا فلو كان مجنوناً فلا تكليف ولا مسؤولية، لأنَّه لا يعقِل أمر الشرع ونهيه. ودليل الاثنين قول النبي صلى الله عليه وسلم: (رفع القلم عن ثلاث: عن المجنون حتى يفيق، وعن الصبي حتى يحتلم، وعن النائم حتى يستيقظ).

٣- **الاختيار:** أي أن يكون العمل نابعاً من إرادته، حراً مختاراً فيه؛ وإلا فلو كان مكرهاً على العمل، لم يتحمل صاحبه مسؤولية تصرفه؛ لأنه بذلك يكون قد تحول إلى آلة لتنفيذ الفعل، ولا يُنسب الفعل إليه. قال تعالى: {مَنْ كَفَرَ بِاللهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً} (النحل: ١٠٦). فبين أن الإثم مرفوع عن المكره ولو نطق بكلمة الكفر مادام يجد قلبه مطمئناً بالإيمان. وفي الحديث أيضاً يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ اللَّهَ وَضَعَ عن أمتي الخطأ والنسيَانَ وما استُكْرِهُوا عليه).

٤- **النية:** إذ المسؤولية الحقيقية عند الله إنما هي على نية وقصد المرء دون ظاهر سلوكه. بمعنى أن العمل لو صدر من الشخص بإرادته، ولم يكن ينوي النتيجة التي ترتبت عليه، فإن الله سبحانه يحاسبه على نيته الحقيقية وليس على ظاهر عمله. فمن تصدق على فقير ونيته السمعة والرياء فإنه لا ثواب له عند الله، ومن رمى صيداً فأصاب إنساناً، فإن الله لا يؤاخذه على فعله هذا، ولا يحاسبه على أنه قاتل لإنسان معصوم الدم. وأما نحن في الدنيا فنحكم بظاهر الفعل أو القول؛ لأن النية من الأمور الخفية التي لا يطلع عليها غير الله سبحانه. قال الله تعالى في بيان هذه الحقيقة: {لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ} (البقرة: ٢٢٥). واللغو قول: لا والله. بلى والله. لا يريد الحلف حقيقة، بل سبقه إليه لسانه لتعوده عليه. فهذا لا يؤاخذ، وإنما يؤاخذ من يريد اليمين. عازمٌ عليه قلبه. ويقول النبي صلى الله عليه وسلم (إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى).

٥- **العلم بالعمل المطلوب منه** وبحكمه الشرعي هل هو محرم أم واجب أو إمكانية العلم بذلك، بأن تكون فرصة معرفة الحكم متاحة له بالتعلم المباشر أو السؤال. وإلا فلو لم يسأل عن الحكم، ولم يسع لتعلمه، فإنه يؤاخذ قطعاً؛ لأن المرء لا يُعذر بجهله. والجهل عذر في حق من لم تبلغه دعوة الإسلام، ولم

يمكنه التعرف عليه، ولا السؤال عنه. ولم يكن منه التقصير، فهذا هو الذي لا يؤاخذه الله، لقول الله تعالى: {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا} (الإسراء: ١٥).

٦- كون العمل مما يطاق، أي أنه بمقدوره فعل الشيء أو تركه، وإلا فمتى كان العمل فوق طاقته لم يحاسبه الله عليه، وتسقط مسؤوليته عنه. قال تعالى: {لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا} (البقرة: ٢٨٦).

خصائص المسؤولية:

تتسم المسؤولية في الإسلام بأنها شخصية (أو فردية) بالدرجة الأولى. بمعنى: أن الإنسان يتحمل مسؤولية تصرفاته فحسب، دون تصرفات غيره أياً كان، ومهما كانت درجة قرابته. فلو قتل الأب شخصاً وحُكم عليه بالقصاص، لم يجز الاقتصاص من الولد ولو رضي، بل القصاص على القاتل فحسب. ولو شرب رجلٌ خمراً لم يجلد ولده أو والده عنه ولو طلبوا ذلك ورضوا به. قال تعالى: {كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ} (المدثر: ٣٨)، وقال تعالى: {مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى} (الإسراء: ١٥).

غير أن هناك مسؤولية أخرى ملقاة على عاتق الفرد، أو مسؤوليات متعددة، منها: المسؤولية التقصيرية عن مَنْ هُم تحت ولايته، كالأب في الأسرة، ومدير الدرسة في مدرسته، وضابط الجيش في قطعته، ومدير الشركة في شركته، وولي الأمر

فيما تحت ولايته. يقول عليه الصلاة والسلام: (كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته). ومنها ما يمكننا أن نسميها المسؤولية الاجتماعية -أو التكافلية- وهي مسؤولية كل فرد مكلف في المجتمع عن القيام بواجب الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والأخذ على يد المنحرف. يقول عليه الصلاة والسلام: (من رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بيده فَإِنْ لم يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ فَإِنْ لم يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ).

أنواع المسؤولية:

تنقسم المسؤولية إلى ثلاثة أنواع:

المسؤولية الأخلاقية المحضة: وتعني التزام المرء أمام نفسه وضميره بالإتيان بشيء أو الانتهاء عنه.

المسؤولية الاجتماعية: وتعني التزامه تجاه أبناء المجتمع، وما يفرضه المجتمع من قواعد.

المسؤولية الدينية: وتعني التزامه أمام الله تعالى.

ثالثاً : الجزاء الأخلاقي:

- تعريف الجزاء الأخلاقي: يُقصد بالجزاء الأخلاقي: المكافأة أو الأثر المترتب على الفعل الأخلاقي. سواءً أكان ظاهراً كالسجن والضرب، أم باطناً كتأنيب الضمير. وسواءً أكان في الدنيا كالعقوبات المقررة شرعاً على الجنح والجرائم، أم في الآخرة كنعيم الجنة أو عذاب النار.

- أنواع الجزاء الأخلاقي:

يتمثل الجزاء في: الشعور النفسي، والعقوبات الشرعية، والجزاء الإلهي.

١- الشعور النفسي:

ونعني به ما يلمسه المسلم من نفسه من الرضا عند الطاعة والألم عند المعصية -وهو ما يسمى برضا الضمير أو وخزه- وقد أخبر الرسول عليه الصلاة والسلام عن ذلك الشعور واعتبره من علامات الإيمان، فقال: (من سَرَّتْهُ حَسَنَتُهُ وَسَاءَتْهُ سَيِّئَتُهُ فذلك الْمُؤْمِنُ). وهذا الشعور خاص بالمؤمن، وأما غير المؤمن فلا يبالي بما فعل. يقول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: (إِنَّ الْمُؤْمِنَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَأَنَّهُ قَاعِدٌ تَحْتَ جَبَلٍ يَخَافُ أَنْ يَقَعَ عليه، وَإِنَّ الْفَاجِرَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَذُبَابٍ مَرَّ على أَنْفِهِ فقال بِهِ هَكَذَا. قال أبو شِهَابٍ بيده فَوْقَ أَنْفِهِ).

٢- العقوبات الشرعية:

وهي العقوبات التي أقرها الشرع لأولئك الذين يتعدون حدود الله. والغاية من هذا الجزاء معاقبة المجرم وردعه، وردع غيره ممن تسول له نفسه فعل مثل ذلك. وهذه العقوبات على نوعين:

حدود: وهي جزاءات حددها الشرع على جرائم معينة كحد الزنا، والسرقة، والقذف، ولا مجال للاجتهاد فيها.

وتعزيرات: وهي عقوبات تأديبية يُعَاقَبُ بها من ارتكب جناية لم يحدد الشرع لها عقوبةً.

٣- الجزاء الإلهي:

ونعني به الجزاء الذي يكون من الله سبحانه في الدنيا أو الآخرة.

ففي حالة الطاعة يكون له من الله سبحانه في الدنيا الرضا والحفظ وتيسير الأمور والنصرة والعزة. قال تعالى: {وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ} (الطلاق: ٢- ٣). وقال جل جلاله: {إن تنصروا الله ينصركم} (محمد: ٧). وفي الآخرة له الجنة والكرامة. قال تعالى: {إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلاً} (الكهف: ١٠٧).

وفي حالة المعصية والاستمرار عليها يكون له في الدنيا ضنك العيش والمصائب من الله. قال تعالى: {وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ} (النحل: ١١٢). وقال تعالى: {ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا} (طه: ١٢٤). وفي الآخرة له نار جهنم وله الإهانة والسخط من الله. قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ} (البيِّنة: ٦).

نهاية المحاضرة الخامسة ..